الاثنين ٢٠ / ١ / ٢٠٠٣

أسبوعيات نائب

شوائب على وجه الوحدة الوطنية الفلسطينية

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

تحاول مصر الشقيقة من خلال محادثات القاهرة بين الفصائل الفلسطينية أن توفق بين الآراء؛ بحيث يتم التوصل إلى وثيقة يوقع عليها الجميع؛ تكون ملزمة لهم في مسلكهم خلال عام قادم على الأقل. والهدف المعلن هو تجريد إسرائيل من الذرائع التي تتذرع بها لضرب الفلسطينيين، وتجنيب الساحة الفلسطينية عواقب استغوال اليمين الإسرائيلي المتربع على حكم إسرائيل، والحيلولة دون منح الأمريكيين إياه ضوءا أخضر يطلق يده ليفعل أي شيء بالفلسطينيين في حالة نشوب حرب ضد العراق، ولينفذ برامجه بصدد ترحيل أعداد كبيرة من الفلسطينيين إلى خارج فلسطين.

وقد يقول البعض إن البرامج الصهيونية ماضية في جميع الأحوال، وإن شارون المعني باستجلاب مليون قادم يهودي جديد للبلاد، معني في المقابل بترحيل مليون فلسطيني من البلاد، لأن المشاريع الصهيونية لاستجلاب اليهود كانت مصحوبة دائما بمشاريع لاقتلاع العرب.والسفاح العريق لا يرعوي عن عدوانه ولو لم يملك ذرائع، بل إن يديه الملطختين بدماء الفلسطينيين قديما وحديثا جاهزتان لافتعال الذرائع، أضف إلى ذلك أن الضوء الأخضر الأمريكي موجود دائما تحت الطلب، لا سيما في زمان النحس الذي جلب بوش وشارون معا، وبالتالي إن أية هدنة من طرف واحد لا تعدو أن تمنح شارون الوقت الذي هو بحاجة شديدة ومن هنا فإن خير وسيلة لإفشال هذه البرامج والمخططات هو الاستمرار في هذه المواجهات متعددة الأشكال معها دون قيود، ما لم تبدأ إسرائيل بالتقيد بقوانين الحرب على الأقل.

كلنا أمل ودعاء على كل حال أن تتكلل محادثات القاهرة بالنجاح.فمهما يكن اختلاف الآراء والرؤى والمواقف فإن من المسلمات فيما يخص القاهرة حصرا أنه . بالإضافة إلى الروابط والوشائج الأخرى . فما من مفكر استراتيجي؛ مصري أو فلسطيني؛ يمكن أن يغفل عن عبرة التاريخ القديم والحديث : لقد ارتبطت مصر وفلسطين دائما بروابط التداخل والتفاعل والمصير المشترك. أما في الزمن الحاضر فإن النظرة الاستراتيجية لا يغيب عنها أن القضية الفلسطينية بدون مصر ووزنها ودعمها ومشاركاتها تظل حبيسة العجز، كما لا يغيب عن إدراكها أن الأمن الوطني المصري بدون فلسطين سيكون سهل الاختراق.

ولكن محادثات القاهرة بين الفصائل تأتي في الزمن الردئ الذي أصابت رداءته كل ناحية وكل زاوية في الحياة العربية المعاصرة. وليست مسألة الوحدة الوطنية استثناء من قاعدة الرداءة في الزمن الردئ ! فعلى الرغم من الإرث التاريخي الغني الباذخ الذي أورثتنا إياه عصور تكوين الأمة، فإن الحاضر فقير إلى الحد الذي جعله عالة على الماضي.

سبق أن قلنا إنه لو كانت هناك شهادة تعطى للشعب الأكثر تجانسا وترابطا في العالم لاستحقها الشعب العربي الفلسطيني بلا منازع. إنه شعب صغير بالقياس إلى غيره يقيم فوق أرض صغيرة المساحة، ما جعل التواصل بين جماعاته وأفراده أسهل من تواصل غيرهم في البلدان ذات التعداد الضخم والمساحة الشاسعة. وهو شعب ذو أرومة قومية واحدة، يتكلم لغة واحدة، وتعتنق غالبيته ديانة سماوية، وأقليته ديانة أخرى، دون أن يتوزع هؤلاء وأولئك توزعا كبيرا بين مذاهب مختلفة كما يحدث في الأقطار ذات الفسيفساء الطائفية ذات الألوان.

ومن شأن ذلك طبعا أن يعزز الآصرة ويقوي اللحمة ويقلل أسباب الفرقة والخلاف الممكنة لدى الشعوب ذات القوميات واللغات والديانات المتعددة. وقد مر هذا الشعب في تاريخه المعاصر بأحداث جسام وتعرض للقتل والتهجير والترويع، وبرهنت له الساعات الحرجة أن وحدة صفوفه هي أمضى سلاح وأن وحدة قلوب أبنائه هي أنجع دواء وأطيب عزاء عما يلقاه شعب لا يستطيع أن يصمد إلا بتقديم أغلى التضحيات. وكان من شأن التعرض للتجارب القاسية ذاتها ومكابدة الخوف والجوع والنقص في الأنفس والأموال والثمرات أن يزيد النسيج متانة وإحكاما.

ذلك هو إرث الماضي. فما الذي أضافه المعاصرون إليه ؟!

رايات وأناشيد

الواقع أن زمن الثورة الفلسطينية الذي شهدناه وعاصرناه أضاف كثيرا من كدر الشوائب إلى الوحدة الوطنية الفلسطينية.

لقد أدت نكبة فلسطين أصلا عام ١٩٤٨ إلى بعثرة شعب فلسطين أشتاتا ما بين الأرض الفلسطينية والبلدان العربية الشقيقة المجاورة والأقطار الأجنبية الأبعد. وكانت نكبة فلسطين من هذه الزاوية نكبة على الوحدة الوطنية التي كان لا بد لها أن تتأثر بواقع الشتات نظرا لما يبدده من عناصر التجميع ولما يضيفه من عناصر الفرقة.

وحينما تفجرت الثورة الفلسطينية ونشأت في إطارها الفصائل المختلفة، تعرضت الوحدة الوطنية الفلسطينية للإضعاف بقدر ما أحدثت التربية الضيقة المتشددة التي جعلها البعض أسلوبهم ووسيلتهم من تعزيز الولاء الفصائلي والروابط الفصائلية على حساب الولاء للقضية الواحدة وللإحساس بالجماعة الفلسطينية.

ولم يكن في مقدور أم الشهيد والأسير أو الوالد في السبعينيات، بل وحتى في الثمانينيات، أن يفهما عندما يخرج الواحد منهما تحت ضغط الحاجة إلى عمان (مثلا) بحثا عن مستحقات الشهيد والأسير، ما هي الفصائل وما هو الفرق بينها. كان شعبنا يفهم أن الشباب المقاومين فدائيون،؛ وهي كلمة كافية في نظره. ولم يكن أحد يحتاج . بسبب بداهة التوجه للمقاومة ردا عل العدوان والاحتلال . إلى فلسفة نظرية تمايزه عن الآخرين، ولذلك كان الأب أو الأم يدهشان عندما يكتشفان مجرد وجود تسميات أخرى غير تسمية (فدائي). ولم يكن أي منهما غالبا يعرف أن ابنه منتم إلى فصيل ذي اسم خاص ونظرية خاصة. إن ما نقوله مؤكد أنه خصيصة من خصائص الوضع الفلسطيني.

ونحن لا نقول هذا لكي نخلص إلى نتيجة أنه لم يكن هناك داع لوجود فصائل أو منظمات في الساحة الفلسطينية. فذلك غير مجد وغير منتج. والظروف التي جعلت حركة التحرير الوطني الجزائري أو جبهة التحرير الفييتنامية أو حركة العصابات الكوبية كيانا تنظيميا واحدا بلا موازيات ولا مرادفات ولا فصائل طوال فترة الثورة، هي غير الظروف التي أحاطت بالفلسطينيين في نكبتهم وشتاتهم. وإنما أردنا بهذا أن نصل إلى ما ينفع الناس : أعني نقد التربية الفصائلية الضيقة المتشددة التي تجعل من الفلسطيني من غير أفراد فصيلنا شخصا يكاد يصبح عدوا في بعض الأحيان؛ وأقل ما يقال فيه أنه غريب عنا !! والتي تثير فينا الطرب لمرأى رايتنا الفصائلية المخترعة مؤخرا أكثر مما يطربنا مشهد علم البلاد. وبذلك تضعف الرابطة الحميمة الموروثة، والتي عززها الإحساس بالاشتراك في التعرض لمظلمة النكبة.

عدوى الانقسام

إن الانقسام ظاهرة معدية. ويبدو أنه حين تسود الوطن الكبير الذي هو وطن الأمة بكاملها ظاهرة الانقسام والتفرق والاحتفاء بالجزء وبراية الجزء ونشيد الجزء على حساب راية الكل ونشيد الكل، يصبح المناخ مؤهلا لمزيد من الانشقاق على كل صعيد.

لقد فجعنا ذات يوم أثناء مسيرة الثورة الفلسطينية ببروز نعرات تافهة أثارها تافهون مشبوهون أو جهلة لا يستحون. وأول تلك النعرات نعرة (غزاوي وضفاوي). ثم تلاها فيما بعد نعرة (خليلي ونابلسي وقدسي). وإذا كان من المألوف في معظم البلدان

أن تتناقل الأجيال نوعا من الفولكلور التمايزي الذي يفاخر بمواصفات قرية أو مدينة أو ناحية وينسب إلى أخرى مثالب هزلية أو جدية تنقص من قدرها، فإن ذلك يبقى مع ذلك نوعا من الحكايات الفولكلورية المسلية، لا أكثر ولا أقل. أما إذا اتخذ البعض مثل هذه النعرات محركا لنزاع داخل الجماعة؛ أو أساسا وأرضية لتأسيس تجمع أو حزب أو عصبة لاستقطاب فريق واستعداء فريق، فإن ذلك يصبح جريمة كبيرة، هي بعينها الفتنة التي جعلتها الآية الكريمة أشد من القتل.

وذلك ما يحدث بسهولة في المناخات التي أشرنا إليها : مناخات الانقسامات الأوسع على صعيد الأمة كلها وصعيد الوطن الكبير. فما بالنا إذا ابتلينا بحكم العدو الذي عمل ما بوسعه لتوسيع الشقوق ومضاعفة الفجوات ؟

فوجئنا وفجعنا لدى عودة العائدين إلى الوطن، بعد السبعة وعشرين عاما التي رزح خلالها الوطن تحت الاحتلال، ببروز نعرات استطاعت أجهزة العدو الساهرة على الفساد أن توطنها وتجعل منها تجارة رائجة لبعض المشبوهين. ولا شك أن أخطرها نعرتان سهرت أجهزة العدو وسهر عملاؤه واستمات بعض الجهلة السطحيين التافهين من أجل النفخ فيهما وتوظيفهما توظيفا سياسيا مغرضا. نعني بهما نعرة (لاجئ ومواطن) ونعرة (عائد ومقيم). وكان مما يعزز الريبة ظهور أولى هذه النعرات على غير استحياء في أجواء ومناظرات الانتخابات الرئاسية والتشريعية عام ١٩٩٦ / ١٩٩٧. فقد راجت نعرة (لاجيء ومواطن)، وهي كما عاصرناها عام ١٩٤٨ والأعوام التي تليه لم تبلغ قط أن تصبح نعرة، بل كانت توصيفا لحالة مستجدة إثر الهجرة الفلسطينية، وكانت وظيفتها المعلومة لنا في الأساس هي تأهيل من تطلق عليه إحدى الصفتين للحصول أو لعدم الحصول على بطاقة تموين بموجب التسجيل في سجلات وكالة غوث اللاجئين (على أن بعض المواطنين غالطوا الوكالة وسجلوا أنفسهم لاجئين، وبعض اللاجئين أهملوا تسجيل أنفسهم فلم يعودوا في حكم سجلات الوكالة لاجئين). فلما استقرت كشوف التسجيل وبنيت المخيمات بالطوب فلم تعد خياما، تلاشت في المجتمع الفلسطيني دواعي التوصيف، بل وغلب على جميع أهالي قطاع غزة (مثلا) وصف اللاجئين في نظر العالم الخارجي كله، إذ أصبح كل من يسافر منهم يحمل ما يدعى (وثيقة سفر اللاجئين الفلسطينيين).

لمن الوظائف ؟

وإنني واثق أننا حينما وصلنا إلى عام ١٩٦٧ لم يعد أحد يتكلم ولا أحد يتداول ولا أحد يسمع المصطلحين بتاتا. اللهم إلا حين كانت تتكلم الإذاعات عن زيارة شخصيات أجنبية لمناطقنا وقيامها بزيارة بعض مخيمات (اللاجئين) والاطلاع على أحوالها. وكان وجود مخيمات اللاجئين بحد ذاته (وبالنظر لكونه معلما من معالم النكبة وأثرا باقيا من آثارها) مبعثا للضيق الشديد والاحتجاج وإطلاق الاتهامات من قبل إسرائيل ضد الدول العربية، بدعوى أن الدول العربية تبقي على المخيمات عمدا لتثير حفيظة العالم على إسرائيل، دون أن يخطر ببال الإسرائيليين أولا وآخرا أنهم هم المسؤولون عن وجود تلك المعالم وأنهم هم المقيمون في بيوت أولئك اللاجئين.

وهكذا كانت المفاجأة كبيرة حينما تصادف أثناء ندوة انتخابية عقدتها شخصيا في مخيم الشاطيء عام ١٩٩٦ أن وقف واحد من الحاضرين يقول : بما أن اتفاق أوسلو قد حسم الأمور، وصارت الضفة والقطاع بموجب الاتفاقية إقليم السلطة الفلسطينية، فإن النزاع يدور الآن على أراضي ٤٨، ولذا فإن اللاجئين فقط هم المعنيون بالمرحلة القادمة.

كان ذلك المنطق من الهشاشة بحيث لم يتأثر به أحد من المستمعين الحاضرين. ولكنه أضاء عندي ضوءا أحمر، يعلن أن المخابرات الإسرائيلية لم تكن تلعب خلال زمن الاحتلال الطويل.

بعد ذلك، تحدث متقعرو الطبقية عن مضمون طبقي لشعار (لاجيء ومواطن) فاللاجئون هم المحرومون، والمواطنون هم المنعمون ! وتحدث ورثة العصبية الجاهلية من المواطنين قائلين : أليسوا هم الدخلاء الذين قاسمونا كل شيء ؟

وحينما حمي وطيس معركة باراك ومن بعده شارون ضد مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية لأسباب بعيدة كل البعد عن قضايا الفساد والإصلاح، أشاع المشبوهون النعرة الخطيرة الثانية، نعرة (عائد ومقيم). العائدون هم الذين يستأثرون بالوظائف وهم الذين يستولون على كل خير لأنفسهم، والمقيمون هم الذين حاربوا وقاوموا ولم يحصدوا إلا الخسارة.

ثمة نعرات أخرى ليست أقل تفاهة، كنعرة البدوي والفلاح ونعرة الشمالي والجنوبي ونعرة ابن العائلة وابن الكادحين. وقد تذكرت ذات مرة قديما تجربة أجراها أحد علماء الاجتماع على القردة، إذ وضع مجموعات من القردة في أقفاص منفصلة ومتجاورة زمنا معينا، ثم حاول أن يقوم بعملية نقل من قفص إلى قفص، فوجد أن كل قفص قد كون فيما بين أفراده رابطة معينة، بحيث لم يتقبل قرود القفص الواحد قردا وافدا من قفص آخر ولو كان قفصا مجاورا.

والفلسطينيون ليسوا قرودا. ولكن القرود هم منظرو الرابطة القفصية الذين يريدون أن يجعلوها بمثابة جامع يجمعهم مع ناخبين خاصين بهم ويخرج من الدائرة أي أحد آخر سواه وسوى من كانوا على غراره. وقد تجد بعضهم يهمس بعصبية عشائرية صريحة أو يتشدق بالماركسية أو يدعي أمجادا نضالية ليس كمثلها أمجاد وقد تجده يجمع الملايين المستترة ويغمز من قناة الذين يظهر عليهم الستر، والمدار الذي تدور عليه مساعيه كلها هو المال والسلطان واقتسام جلد الوطن الذبيح.

لقد استثار المتعيشون المثرون على حساب العصبيات بأنواعها وألوانها المختلفة جميع ألوان وأشكال العصبيات المضادة. ولم تهتز شعرة في ضمير فريق من أولي الأمر الذين يلعبون على التناقضات ويوظفونها لغرض السيطرة على الجميع جريا على القاعدة الاستعمارية المعروفة " فرق تسد ". لقد مللنا وضقنا ذرعا من هؤلاء التجار ومن هذه التجارات التي لم يخسر فيها إلا الوطن، ولولا متانة النسيج الأصلي الموروث ولولا البركة التي حلت فيه كما حلت في كل ما هو في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس لذهب المفسدون بالنسيج بعدما أعملوا فيه تمزيقا. ولكن الله غالب على أمره ولو كره الكافرون، والرباط ومقومات الرباط باقية، رغم أنوف المبطلين.